أَنَـرتَ الـدّارَ يَـا قَمَـرِي *** أَنَرتَ الـدّارَ يـا سَعْـدي

بَعَثْـتَ النّـورَ فـي قَلْبِـي *** بَعَثْـت الأُنْـسَ فِـي رُوحِـي

أَخَـيراً جِئْـتَ يَـا قَمَـرِي *** إِلَيـكَ الشّوقُ يَقْتُـلُنِـي

اخراج فني: دار حكايا للنشر والتوزيع
تأسيس وتنفيذ: فاطمة بوخمسين

جميع الحقوق محفوظة للناشر::لا يسمح بإعادة إصدار أو طباعة هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله كلياً أو جزئياً بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر

سلسلة حكايات جدتي

رحلة جوليانا على سطح القمر

تأليف: هنادي تركي العتيبي رسم: نورا عباس

هـا هي أيـامُ الشـتاءِ قـد قدِمـت، وأصـواتُ الرعـدِ والأمطـارِ قـد حلّـت محـلَّ أصـواتِ العصافـير المُغـرّدة الـتي قـد سـكنت، وقطـرات الثلـج الصغـيرة السـماء قـد مـلأت، وجبـال الريـف بلـون الثلـجِ الأبيـضِ الناصـعِ ازدانـت، وفي مدفـأةِ الدارِ جدّتُنـا النّـارَ أشـعلت، لطالمـا مـن بـردٍ فظيـعٍ قـارسٍ خشـيت، وبـكُلِّ سـكينةٍ وتـأنٍ سـحبت، مقعـداً خشـبياً وبالقُـربِ مـن الموقـدِ جلسـت، وبغطـاءٍ مـن الصـوفِ الأنيـق التحفـت، وكـوب الحليـبِ الساخنِ بين يديها الباردتين أمسكت!

***

وبشـوقٍ إلى كتـابِ للحكايـاتِ نظـرت، كانـت تضعـهُ فـوق منضـدةٍ مـن الخشـبِ قـد صُنِعَـت، ولذكـرى تلـك الأيـام الخـوالي قـد حنّـت، وعيناهـا الصغيرتـان الدّمـع الدافـئ قـد ذرفـت، وبصـوتٍ ضعيـفٍ مُرتجِـفٍ قالـت: إلـهي لكـمِ انفطـرَ قلـبي شـوقاً لهـم، إنّـني أتـوقُ حقّاً للقائهم، فقد جمعتُ العديد من الحكاياتِ لأجلهم!

***

مسـحت بلُطـفٍ الدّمـعَ عـن عينيهـا وابتسـمت، ومـن كـوبِ الحليـبِ السـاخنِ بهـدوءٍ ارتشـفت، و في حـيرةٍ شـديدةٍ تسـاءلت: تُـرى كيـف غـدا طقسُـنا الآن ؟ أمـا زال الثلـج يهطـل بـذات الغـزارة أم مـاذا؟ أرجـو أن يكـون صغـاري في طريقهـم إليّ الآن؟ ربّـاه أمـا آن الأوانُ لأن يأتوا أم ماذا؟

نقلت نظرها باتجاهِ نافذةِ الدارِ وبها حدّقت، تمنّت بشدّةٍ لو أنّها جلبت لصغارِها معاطف دافئة عندما للسوق ذهبت.

وبنبرةٍ كُلّها أسفٌ وعتاب نفسها حدّثت: وأسفاه، تلك المعاطِف الدافئة الجميلة في السوق رأيتها، يا ليتني كنتُ نبيهةً فجلبتُها.

أنتِ حمقاء يا هيلين إذ تركْتِها، أفٍ لكِ أيّتها العجوز البائسة الطاعنةِ في سِنّها، لو أنكِ لا تزالين شابة لكُنتِ في ذلك الحين ذكرْتِها، ولكنّكِ على أيّةِ حال لستِ سوى عجوز قد ودّعت منذ زمن ذاكرتها!

***

وعلى حين غفلةٍ وبشكلٍ مفاجئٍ صمتت، وبصرها ناحية الأرض أرخت، ويديها على وجنتيها وضعت، بدت وكأنّها نادمة على ما فعلت، فقبل لحظات نفسها المسكينة وبّخت، وليس ثمة أيّ ذنبٍ ارتكبت، وأخيراً لنفسها العذر التمست، فقالت وعلى شفتيها ابتسامة اعتذارٍ ارتسمت: أنتِ لستِ مخطئة يا هيلين، فهذا هو حال الإنسان، إنّهُ بفطرتهِ كثير النسيان، شاباً كان أم كهلاً لابدّ أن يجتاحهُ النسيان أحيان!

***

رفعت رأسها وباتجاه النافذةِ مرةً أخرى نظرت، شعرت بفضولٍ تجاه الطقس فتساءلت، هل يا تُرى عاصفتنا الثلجية قد سكنت؟ ومن مقعدِها الخشبي بتثاقُلٍ نهضت، ونحو النافذة بخطواتٍ شاردةٍ اتّجهت، وبفكرها القلق على صغارِها سَرِحت، وما إن مِن النافذةِ اقتربت حتّى برجلِ الكُرسي تعثّرت، وعلى الأرضِ بقوة سقطت، حاولت النهوض ولكنّها بشدّةٍ تألمت، وبصوتٍ مُرتعِدٍ جدّاً همست: ويحي يبدو أنّ قدميّ قد شُلّت!

***

شعرت في لحظة بأنّ قواها قد خارت، وعن تحديدِ مكان الألمِ قد حارت، حاولت كثيراً النهوض لكِنّها فشِلت، ومن كُلِّ أعماقِ قلبها تنهّدت، وبِحُزنٍ شديدٍ الرّب ناجت ، بأن يُصبّرها على ما لاقت، فجدّتُنا في السّن قد كُبرت، وإلاّ لكانت بسُرعةٍ نَهضت، فلم يسكن معها أحدٌ في دارِها وإلاّ لكانت بهِ استنجدت،

ولكِن هذه هي الجدّة من غير اللهِ العونَ ما طلبت، وبفضلِ اللهِ شجاعتها استجمعت، وعلى كلتا يديها بعزمٍ اتكأت، وأخيراً وبإصرارٍ عظيمٍ انتصبت، وعلى قدميها مجدّداً وقفت، وما إن على الأرضِ اتّزنت، حتى يديها للسماءِ رفعت، وحمداً وشكراً للهِ تمتمت!

***

وبخطواتٍ مُتألّمة إلى النافذةِ وصلت، وما إن وصلت حتّى بحذرٍ قِفلها فتحت، وما إن أرادت أن تُطِلَ بوجهها الدافئ مِن شُباك الّدارِ حتّى اندفعت، كُتلة ثلجية باردة من الرؤية الجدّة منعت، فتراجعت فوراً إلى الخلف وارتجفت، وعن النافذةِ بوجهٍ مذعورٍ أشاحت، وبحركةٍ لا إراديّة لها سدّت، وإلهي لطفك ورحمتك ردّدت، وأمّا آلام قدميها الناجمة عن سقوطها قد اندثرت، وبتحسنٍ سريعٍ فيها شعرت، ابتسمت حينها وقد فهِمت، أنّ آلامها بقدرة اللهِ الشافي قد شُفيت!

***

وللمطبخِ على الفور ذهبت، وإبريق الحليب على نارٍ هادئةٍ وضعت، وشطائر الجُبن اللذيذةِ سخّنت، وبيدها كعكة الشوكولا تحسّست، ففوجئت تماماً بأنّها بردت، فلم يمضِ سوى نِصف ساعة منذُ أن لها من الفُرنِ أخرجت، كما أنّها في ورقِ القصديرِ حافظِ الحرارةِ الكعكة قد وضعت!

وبتعجبٍ جدّتنا تساءلت: كيفَ ..... كيفَ برُدت؟ ففي ورقِ القصديرِ قد حُفِظت، ما خطب الأشياءِ جميعها قد ثلّجت، لابدّ أنّها من الطقسِ قد تأثّرت!

***

وحتّى يسْخُن الطّعَام جدّتُنا انتظرت، وسُبحان الله خيرُ ما بهِ نطقت، وما إن بيديها الكعك والشطائرَ لمست، حتّى تأكّدت من أنّها بالفعلِ سخِنت، وكوباً صغيراً من حمّالة الأكوابِ جذبت، ومن إبريق الحليبِ القليل سكبت، ارتشفت قليلاً وبلسانها تذوّقت، ساخناً لذيذاً الحليب وجدت، ومِن الرّف أربعة أطباق أخرجت، وبِها ما لذّ وطابَ رتّبت، وإلى الصالةِ حيث دفء المدفأة الأطباق حملت، وبكُلِّ حُبٍ الأواني على المائدةِ نسّقت!

***

وما إن مِن التّرتيبِ فَرِغَت، حتَّى على مقعَدِها الخشبي قعِدت، وإلى ساعةِ الحائطِ بِتوترٍ النظر اختلست، فمِن أنْ يبْرُدِ الطّعام خشيت.

علت بغتة أصوات أطفالٍ و إلى أذانِها تسلّلت، ولكنَّها ما لبثت أن قفزت، وإلى البابِ بسُرعةٍ هرعت، وضحكات الأطفال من الباب أزِفت، وبمقبضِ الباب الجدةُ أمسكت، وقبل أن تتهادى أصوات الطرقات إلى مسامِعِها الباب على عجلٍ فتحت، وللقاء صغارها جدّاً تلهّفت!

***

وبابتسامةٍ دافئةٍ حنونةٍ أحفادُها استقبلت، ولدارِ حتماً الصغار عن برد الشتاء أدخلت، وبعد دلوفهم إلى الدارِ الباب بهدوء أوصدت، وبِكُلِّ الشّوق والحُب أطفالها احتضنت، ولأحوالهم بصبابةٍ تفقّدت، وعلى رأس جون وجاك بلينٍ وحنانٍ مسحت، ووجنتي كلارا وكلير برقّةٍ قبّلت، صفّقت بيديها وبصوتٍ مُبتهجٍ هتفت: مرحى، مرحى يا هيلين السعادة على دارُكِ قد حلّت، هنيئاً، هنيئاً أيّتُها الدار فالمسرّات عليكِ قد أقبلت!

***

ها هي البهجة إلى وجهِ جدّتنا قد عَادت ، لطالما مِن وحدةٍ قاسيةٍ قد عانت، فروحها سلفاً من الأشواق قد فاضت، وأمّا الآن فلْنقُل أنّ الحياةَ إلى روحِها قد عَادت.

ولصِغارِها بيدها اليُمنى أشارت، وأن يتوجهوا حيثُ موضع المدفأة أرادت، و ما إن إلى الصالةِ معهم دلفت، حتى بنبرةٍ سعيدةٍ بهم رحّبت: أهلاً ..... أهلاً يا فرحة قلبي وروحي، أهلاً .... أهلاً يا نور داري ومقلتي، أنتم يا صغاري سِرُّ ابتهاجي وبهجتي، هيّا تناولوا من هذا الطعام الشهي، أعددتهُ لكم بكُلِّ ودّي، فلتأكلوا يا فرحة جدّتكم فهو بالطاقة جدّاً غنّي!

***

وبسعادةٍ غامرةٍ الأطفال حول المائدةِ ألتفوا، وإلى الطعام بإعجابٍ وشهيةٍ نظروا، وللجدّة بِحُبٍّ وامتنان ابتسموا، وما إن بتناولِ الطعامِ قد همّوا، حتى سريعاً الجدّةُ هتفت: توقفوا ....توقفوا يا أصحابي فقد نسينا غسل الأيادي!

وبصوتٍ واحدٍ جميعاً ردّوا: حاضر، حاضر يا جدّتنا!

***

وبِرفقةِ الجدّة الأطفال إلى المغسلةِ ذهبوا، ولمّا من غسلِ أيديهم فرِغوا، إلى مائدةِ الطعامِ فوراً رجعوا، وما إن بأيديهم الأطايب لمسوا ، حتّى تارةً أخرى الجدّةُ هتفت: لحظة ... فضلاً يا صغار لقد نسينا ذكر الله!

وبنفس الإيقاع جميعاً ردّوا: بسم الله على طعامِنا بسم الله، وماذا بعد ؟ وماذا بعد؟

يا جدّة ... يا جدّة .... وماذا الآن هل نأكُل؟

على شفتيها من كلام أطفالها الابتسامة رُسِمت: طبعاً .... طبعاً يا أحباب!

***

ومِـن تنـاولِ الطعـام الأطفـال شـبِعوا، وبتُخمـةٍ هائلـةٍ أحسـوا، وقُـرب المدفـأةِ حـولَ الجـدّةِ ألتفوا، وكلارا الطفلةُ الشّقراء، بكُلِّ براءةٍ قالت:

ألا ليـتَ الشِـتاء يغيـب، إلى الأبـدِ ويبـقى غريـب، و يـا ليـت الثلـج يـذوب، وفي الأرضِ نظـلُّ نجـوب، ألا ليـتَ الرّبيـع يـدوم، وفراشـاتي تظـلُّ تحـوم، و يـا ليـتَ الدفء يعُـم، لـكي نحـنُ بـهِ ننعم! أوليس كذلك يا جدّة ؟ أو لستِ أنتِ مُستاءة؟

***

إليهـا الجـدّةُ نظـرت، ومـن كلماتِهـا غضِبـت، وببـطءٍ رأْسُـها هـزّت وعلى قولِهـا عتِبـت، ومـاذا تقـولُ مـا علِمـت، فمِـن طفلتهـا دُهِشـت، و يديهـا بحنيّـةٍ قبضـت، وبكلمـاتٍ دافئـةٍ لهـا فهّمت:

كلارا طفلـتي الحلـوة، للحيـاةِ فصـولٌ حلـوة، وأنـا لسـتُ مُسـتاءة، فكيـف أسـتاءُ مـن نعمـة، زوالهـا فيـهِ تأثـيرٌ لكائنـاتٍ حيّـة، فـهي بـدون صيـف الحـر أو حـتّى شـتاءِ الـبرد، وكـذا دون خريـفِ العـدل أو حـتّى ربيـعٍ عـذب، ببسـاطة لـن تقـضي حياتُهـا الطبيعيـة؛ إذاً فوجودهـا نعمة وللرّب فلنشكُر لكي لا تُصبح نِقْمة!

***

كلارا في الأرضِ تطلّعت، وعيناها بالدمع اغرورقت، وعلى كلماتِها أسِفت، خشيت أن تكونَ للنعمةِ قد جحدت، ولكّن الجدّة للطفلة طمأنت، فطِفلتُها للنعمةِ ما جحدت، ولكنّها لأهميةِ الفصولِ قد جهِلت، وها هي الآن قد تعلّمت، ولنعم الرّب العظيمِ شكرت!

***

وللحظةٍ سادَ الصمتُ مكانهم، وضوء نار المِدفأة قد إنسلّ بخفّةٍ بينهم، ولكتاب الحكايات اتّجهت بتوقٍ أعيُنهم، وسرعانَ ما تبادلوا النظراتِ فيما بينهم، وبشكلٍ مُفاجئ تعالت أصواتهم، بدوا وكأنّهم من خلالِ نظراتِهم عقدوا اتِفاقهم، وهكذا عمّ الصخبُ مكانهم، بعد أن هيمن منذُ قليل صمتهم: هيّا ..... هيّا يا جدة ... فقد حانَ الوقتُ الآن لأن تحكي لنا قِصّة ... تجولُ بنا في كُلِّ مكان!

***

وبِهدوءٍ الجدّةُ ضحِكت، ومِن مقعِدها بحماسةٍ انتصبت، ونحو المنضدةِ بوقارٍ مشيت، وعن الكتابِ الغبار الكثيف نفضت، وبرقّةٍ لهُ رفعت، وبين ذراعيها إيّاهُ حمِلت، وإلى مقْعدِها الذي يلتف حوله صغارها رجِعت، وما برحت أن للكتاب احتضنت!

ردّت بينما إصبعها السبابة حرّكت: مشاغبون على طلبي متّفقون، مدهِشون للنظراتِ تفهمون، ستُحلِّقون والعالم معي ستجوبون!

***

وبجبورٍ صفحات الكتابِ قلّبت، ومن بين الكم الهائل من الحكايات أيّها تحكي حتماً احتارت، وبالمصادفة على عُنوانِ حِكايةٍ جذّابةٍ عيناها وقعت، وبهذا أجمل الحكايات لأطفالها اختارت، وما إن عزمت على بدءِ الحكايةِ حتى لوهلةٍ توقّفت، فعن إعطائهم فكرة عن القصةِ قد غفِلت، وأن تُقدّم لهم تعريفاً بسيطاً قرّرت، وبعينيها اللامعتين إليهم نظرت، وبحلو الكلامِ لهُم قالت: صغاري حكايتُنا لفتاةٍ جميلةٍ على القمرِ الأبيضِ قد صعِدت، وعلى سطحهِ الجميلِ قد ركِبت، وعلى العديدِ من الأصدقاءِ تعرّفت، سأحكي لكم الآن ليلتها كيف انقضت!

***

وهكذا جدّتنا اللطيفة في سرد حكايتها شرعت:

يـا أحبـابَ جدّتِكُـم هيّـا للحكايـةِ أَنصِتُـوا ، وَبِـكُلِّ هُـدوءٍ اجلِسـوا، وإذا مـا أردْتُـم تخيُّـل أبطـال حكايتِنـا فأعيُنكـم أغمِضـوا، ومِـن هُنـاكَ للفضـاء الفسـيح حلّقُـوا، وَمِمّـا تَسـمعهُ آذانكم الجَميلة مِن فوائد جمّة تزوّدوا، و بمُنتهى الحُبِّ الآن صَفّقوا!

فحِكايتُنـا في سـالفِ العَـصرِ والزّمـانِ قَـد حدثـت، تَحـكي لنـا عَـن فتـاةٍ آيـةٍ فِي الجمـال بالرّيـف البديـعِ قَـد ولِدَت، وباسـمِ جوليانـا بـين النّـاسِ قـد عُرِفـت، ومـن العُمـر عـشرة أعـوام قَـد بلغـت، وفي كـوخٍ غايـة في الجمـالِ مَـعَ والديهـا قـد رَبيـت، وبِشـعرها الأَسَـود كَسـوادِ الليـل الدّاكِـن قَـدْ اشـتهرَت، وبِوَجههـا الأَبيَـض المُـشرّب بِحُمـرةٍ أعـيُن النّـاس قَـد سَحَرت، وَبِأَخلاقِهَا النبيلة قلوب العباد قَد أسِرت!

***

وفي يـومٍ مـن أيـامِ الربيـعِ الهادئـةِ فتاتُنـا لحُجرتِهـا صعِـدت، بعـد أن والديهـا قبيـل النـومِ قبّلـت، ونافـذة الحُجـرة برقّـةٍ فتحـت، وأمـام المـرآةِ بـسرورٍ قعِـدت، وشـعرها الأسـود النّاعـم كالحريـرِ برفـقٍ مشّـطت، وفي عينيهـا السّـوداوين اللامعتـين بـودٍّ تأمّلـت، ومـا إن شـعرها المذهـل بالشريطـةِ ربطـت، حـتّى أحسّـت بقمـراء مـن النافـذةِ إليهـا تسـللّت ولوجنتيهـا الجميلتـين داعبـت، وبخجـلٍ جميـلٍ يديهـا على خدّيهـا وضعـت، وعلى شـفتيها ابتسـامةً خجولـةً ظهـرت، لطالمـا مـن لُطـفِ الأشـياءِ مـن حولهـا فتاتُنـا خَجِلـت، هكـذا هي منـذُ أن نشأت، ومن على مقْعدِها باستحياءٍ قامت!

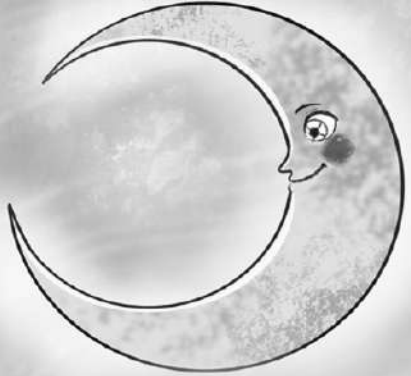

وبوجهها البريء مِن النّافذة بِابتهاجٍ أَطَلّت، نظرت إلى القَمر نظرةً مِلْؤُها الحُبُّ وابتسمت، وبصوتها العذب الشَجي لَهُ غَنّت:

أَنَرتَ الدَّارَ يَا قَمَرَي *** أَنَرتَ الدَّارَ يَا سَعْدي
بَعَثْتَ النّورَ في قَلْبِي *** بَعَثْت الأُنْسَ فِي رُوحِي
أَخَيراً جِئْتَ يَا قَمَرَي *** إِليَكَ الشّوقُ يَقْتُلُنِي

وَبِأُغنية بديعة من القمر فتاتنا حظيت:

يَا حَسْنَاءُ أَتَيتُ إِليكِ *** وَكُلُ الحَقِ اشْتَقْتُ إِليكِ
أَتَيتُ هُنَا لأُسْعِدُكِ *** وَلَلْكَوَاكِبِ أَحْمِلُكِ
يَا حَسْنَاءُ ما رَأَيُكِ *** فَإِن قَبِلتِ مِن لُطْفُكِ
يَا حَسْنَاءُ مَا رَأيُكِ *** فَإِن رَفَضْتِ لَكِ شَأْنُكِ

جوليانا بِبهاءٍ للقمر ابتسمت ، ومن طلبه إيّاها بِخوضِ رِحلةٍ ابتهجت، لطالما في مغامرةٍ استكشافيةٍ لِلفَضَاءِ قد رغِبت، وها هي الفرصة لها الآن قد سنحت، فما من فرصةٍ ثمينةٍ تمر بِفتاتنا إلّا ولها اقتنصت، وبسرورٍ يدها الصّغيرة للقمرِ مدّت، وبصوتٍ عذبٍ شجيٍّ رَدّت:

هَيَّا هَيّا يَا قَمَري *** إِلى الآفَاقِ حَلّق بِي

وَبِالْمَعَارِفِ زَوِّدْنَي *** وَعَلَى الصَّحْبِ عَرِّفْنَي

هَيّا هَيّا يَا قَمَري *** عَلَى سَطْحِكَ احمِلني

اقترَب القمر من نافذتها، وبابتسامةٍ آسِرةٍ قَابلها، وبرقّةٍ أمسكَ بيَدها، وعلى سطحهِ الأنيقِ رفعها، و إلى السَّماء حيث النّجوم المتلألئة أخذها، وبحنانه ولطفه غمرها، وعن جمالِ السَّماء حَدّثها، ومنازِل سُكّان الرّيف من الأَعلى أَرَاها ، وحيث تُقيم الكواكب سارَ بها، ولنقُل أنَّها من هُنَا بَدَأت رحلَتها!

***

فمن مجموعة الكواكب الشّمسية فتاتنا مع قمرها أزِفت، وفي الكواكب العظيمة بعمقٍ تأملت، ومن ألوانها الزّاهية ذُهِلت، تعجّبت من نظامٍ مُتقن الصُّنع بهِ الكواكِبُ اصطفّت، ومن جمالِ الكون واتّساعه دُهِشت، وسُبحان من سوّاك يا كون وأبدعك ردّدت.

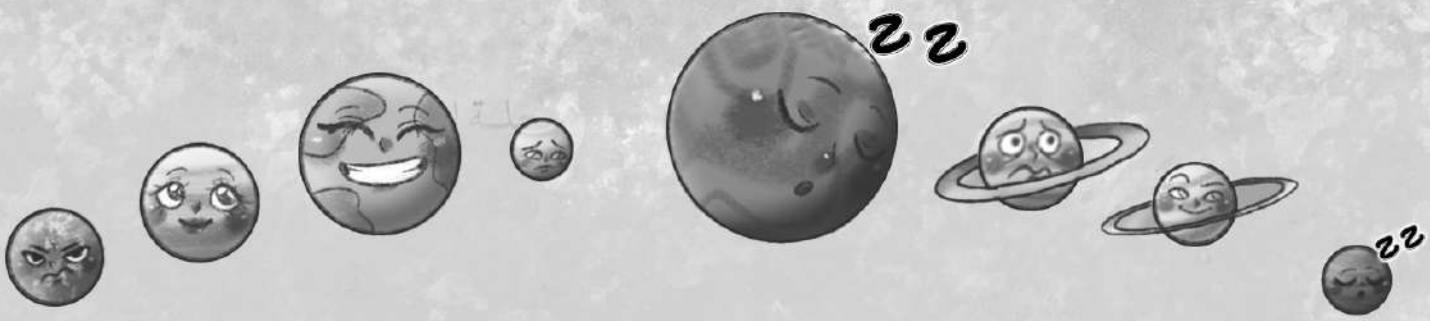

وبحرارةٍ للكواكبِ المُذهلة صفّقت،
وبفضولٍ ولهفةٍ عن الشمس سألت!

***

وقمرُنا بيدهِ الصغيرة البيضاء، أشارَ لِشمْسِنا المِعطَاء!
صاحِبةُ النقاء والصفاء، والتي بأشعّتها تُزيّن السّماء!

ولجوليانا قدّم وصفاً للبديعةُ الصفراء،
ونخبتها المذهلة الحسناء!

أَتَرِيَنَ هُناكَ يَا بَطَلَة *** هُنالِكَ شَمْسُنَا الحُلوة
فَهَي تَعَيشُ كَالمَلِكَة *** تَقُودُ هَذهِ النُّخْبَة
فنُخْبتُنا ثَمَانَيَةٌ *** مِنْ الكَواكِبِ الحُلَوة
بِحُلوِ اللّونِ مَزَهوَّةٍ *** وَبِالْجَمَالِ مَكْسُوّةٍ

وإلى السّيد عُطارد جوليانا بصُحبة القمرِ وصلت، وما إن شاهدت قمرها يُلقي التحيةَ على الكوكب حتّى لهُ قلّدت، وبابتسامةٍ خجولةٍ به رحّبت، ولكنّها سريعاً لاحظت، استياءَ السّيد وتجهُّم وجههِ لذا عن الكلامِ أحجمت، وعن سرِّ غضبهِ واستيائهِ في نفسها تساءلت، و كيف تحصل منهُ على المعرفةِ فكّرت، وبشكلٍ مفاجئٍ فِكرة عبقرية إلى ذهنها قفزت، وأن تغُنّي لهُ قرّرت، فلرُبّما بلحنها من غضبهِ خفّفت، وبذلك تكون قد حصلت على العلم المفيد ومنهُ انتفعت!

أتَيتُ إليكَ يا وجهَ السّعدْ *** أحمِلُ معي كُلّ الود
وبالمَعرِفةِ أنا أسعَدْ *** فالعِلمُ سَبيلي للمَجد
يُقالُ لديكَ خيرُ الزّادْ *** لذا من فَضلِك يا سيّد
أعِرْني عِلماً بهِ ازدَاد!

***

اعتلت وجه السّيد ابتسامة مُشرقة وبإعجابٍ تطلّع إليها، بدا وكأنّ نيران غيضه انطفأت من جمال لحنِها ، ولْنقُل أنّ تجهّمه وغضبه قد زالا من عذوبةِ صوتها، وبالمعلوماتِ القيّمة قرّر تنويرها، فعلمه ما هو إلاّ وصفٌ دقيقٌ عن نفسهِ ولكنّهُ أرادَ بهِ تزويدها، فهو يُدرِك أنّ مثل هذهِ المعلومات عند البشريةِ عالية في قيمتها.

و بنبرةٍ حنونةٍ بالعلمِ وافها:

يـا حسـناءُ إليّ اسـتمعي، ولوصـفي هيّـا انتبـهي، السـيّد عُطـارِد هـو اسـمي، وأنـا الأوّل في مرتبـتي، حـرارتي دومـاً مرتفِعـة ومنهـا يـزدادُ سـخطي، وكيـف لا يمتعِـضُ وجـهي وحـرارةُ شمسي دوماً تُحرِقني!

سـطحي يُشـبه سـطح القمـر إن دقّقـتي ، ووجـه الشـبه يكمُـن في كونـهِ صخـري، والحُفـرُ كـذا تمـلأُ سـطحي، ومـن بـين الكواكبِ تجديني الأسرعُ حول الشمسِ في دوراني!

كمـا أنّـه لا يوجـد لكوكـبي أيّـةُ قمـرٍ لـو لاحظـتي، والهـواء لـن تجديـهِ على سـطحي مهمـا بحثـتي، لذا لا تقـتربي، ثمانيـة وثمانـون يومـاً أسـتغرِقهُ في مطـافي حـول شـمسي، ببسـاطةٍ هذا يعني أنّ ثمانيةً وثمانون هو عددُ أيام سنتي!

علامـات الاسـتياء على وجهـهِ فجـأة ظهـرت، فاختتـم بنـبرةٍ بالسّـخطِ قـد مُلئـت: يـا فتـاتي هـذا كل مـا لديّ، فخذيـه بحبٍّ وبه انتفعي!

وهـذهِ فتاتُنـا لثمـارِ العلـمِ مـن أولِ كوكـبٍ اقتطفـت، وجزيـل الشُّـكر للسـيّد عُطـارد قدّمـت، ولهُ العُـذرَ التمسـت، فالشّـمس بحرارتهـا الشـديدة للمسـكينِ أحرقـت، ولكنّهـا قبـلَ أن تُغـادِر طلبـاً صغـيراً منـهُ طلبـت، وهـو أن يشـكُر الـرّب الشّـكور مهمـا بـه الصِّعـابُ بلغـت، وهي بذلـك الخـيرَ فعلـت، ولوجـودِ حكمـةٍ بالغـةٍ مـن الإلهِ خلـفَ مـا يُقاسـيه الكوكـب أدركـت، تطلّـع إليهـا قمرُهـا بِحُـبٍّ وإعجـابٍ وقُبلـة في الهـواء إليـه أرسـلت، وإلى ثـاني الكواكـب بيدهـا لقمرِها أشارت، وبتهذيبٍ لهُ قالت: نحو صديقُنا التالي فلننطلق حالاً يا قمري!

***

البهجـة عـن روح جوليانـا مـا غابـت، وبِرفقـةِ رفيقِهـا القمـرِ إلى السّـيدةِ زهـرةَ تقدّمـت، وفي أُذنِ قمرهـا بهـدوءٍ همسـت، لتُخـبِره بمـا بـهِ حيـال السـيّدةِ قـد شـعرت، فقـد أحسّـت بأنّهـا سـيّدة رائعـة وغايـة في اللطـف مـا إن إليهـا لِوهلـةٍ تطلّعـت، وبالفعِـل أحاسـيس جوليانـا صدقت، فالسّيدة زهرة كذا كانت!

ومـا إن لمحـت السـيّدة رفيقنـا القمـر حـتّى بـهِ بحفـاوةٍ رحّبـت، وجوليانـا أيضـاً بنصيـبٍ مـن الترحيـبِ الجزيـلِ حظيـت، ومِـن لُطـفِ السـيدة خَجِلـت، وبفضـولِ السـيّدة زهـرة صديقهـا القمـر سـألت، عـن اسـمِ فتاتـهِ ولأيّ سـببٍ قـد جـاءت، فنظـرَ القمـر فـوراً إلى جوليانـا نظـرة ذات مغزى وببداهةٍ طفلتنا لتلك النظرة فهِمت، وما يريده قمرها منها حتماً نفّذت.

ابتسمت بنعومة وللسيّدة عن اسمها أفصحت،

ولتبّين لها سرّ زيارتها بشغفٍ غنّت!

أهـلاً أهـلاً بـكِ سَـــيّدَتِي *** أبُـثُّ إليـكِ خالِـصَ ودّي

خُلُقُـكِ مُذهِـل قـد أذهَلـني *** وكـذَا لُـطفُكِ قـد أدْهشَنَي

يـاسـيّـدَتِـي أتَيـتُ إليَـكِ *** للـعِـلمِ أنـا أطـرُقُ بابُـكِ

يـا سـيّدَتِي لَجَأتُ إلـيَكِ *** كي أروي ظمـأي مِنْ عِلمُـكِ

والسّيدة من صوتِ جوليانا انبهرت، وبِجمال كلماتها أُغرِمت، فمَا لبِثت أن لها بحرارةٍ صفّقت، وفي إعطائها للعلمِ الثمين أبداً ما تردّدت وبصوتٍ حنونٍ وجميل كوكبها الأنيقِ وصَفت:

***

إلَيكِ وصف كوكبي يافتاتي، يامن بِنُبلِ أَخلاقكِ سحرتني!

السَّيدة زُهرة يَدعوني، والثَانية هي مرتبتي، تُداهمني حرارةٌ قاتِلة في جوفي، مع ذلك فلست الأقرب من شمسي، فالسّيد عُطارِد يتقدّمني، سِرُّ ارتفاع حرارتي يكمُن في سُمكِ غِلافي الجوّي، تحْتَبِس الحرارة في أعماقي بِفعلِ أُكسيد الكربون الثاني، صديقتي الأرض تُشْبِهُني في حجمي، وهذا مدعاةٌ لفخري، ولكنّها في الدورانِ هي عكسي، فمِن الغرب تُشرِق شَمسي، ومِن الشّرق تَغرب شَمسي، بطيئة للغاية في دوراني، إذ أستغرِق مئتان وأربعة وثلاثون يوماً في دوراني حَولَ نفسي!

***

وبابتسامة مليئة بالرِضَا أضَافت: وكما أخبرتُكم فإن الحرارة هُنا تلتفُّ بي، ومِن شدّتها تكاد تَفتُك بي، ولكنّها في نهايةِ المطافِ حِكمة البّاري، فمِن هذهِ الحَرارة الحارِقة هو وحده من سَيحمِيني ويَرعَاني، فرِضَاي بِما وهَبني اللهُ هو سرُّ سروري في حيَاتي، فلن أجزع ولن أسخط بما أنّ هذا من تدبيرِ إلهي!

آه يا طفلتي آملُ أن تكوني ممّا قلت استفدتِ، ومن وصفي البسيطُ لنفسي بالعلمِ الجزيلِ غنِمتِ، ووافر الشكر لكِ يا أميرتي فبقدومكِ السعادة إلى فؤادي أدخلتِ!

***

جوليانا عن جزيل شُكرِها للسّيدة زُهرة عبّرت، وبابتسامة مفعمة باللطف لها ودّعت، وبِرضا السّيدة وإيمانها القوّي بالرّب طِفلتنا قد أُعجِبت، ومِن العلم النافع الذي قدّمته لها بالفعلِ استزادت ووصف السّيدة لنفسها قد أحبّت، ولِقمرِها المُنير ابتَسمت، وعن كمية السّعادة التي تَشعر بِها لهُ قد أفصحت، ويدِها الصّغيرة على رأسه بحنانٍ مرّرت، ثم بعد ذلك لهُ قبّلت، وإِكمال الرّحلة منهُ بعذوبةٍ طلبت!

***

سعادة جوليانا لأعلى مستوياتها قد وصَلت، كما أنّ رغبتها في الحصول عَلى العلم قد ازدادت، ولهفتها للارتواء من العلم تعالت، وناحية الآنسة أرض بصحبة قمرها سارت، وما إن مِن الآنسة خُطاهم قاربت، حتّى بِأمانٍ غريبٍ أحسّت، ففتاتُنا للآنسة أرض سريعاً أَلِفت، وبالانتماء العميق لها شعرت، وكأنّها مُنذ أمدٍ بعيد للآنِسة قد عَرِفت!

وآنستنا البهيّة ما إن صاحبها القمر بصُرت، حتّى بهِ استبشرت، وأطيب التّحَايا له قدّمت، وفي جوليانا للحظاتٍ حدّقت ، بدت وكأنّها سبق وأن بِها التقت، ولكن جوليانا ما برحت أن خجلت، ووجنتيها مِن نظرات الآنِسة احمرّت، وللوضعِ فوراً تداركت!

وبِنعومةٍ بالغة التّحية على الآنسة ألقت، فلو لم تكن حيال المَوقِف قد تصرّفت، لكانت تِلك النّظرات المخجلة قد طالت، والآنسة أرض بحُسن جوليانا قد أُعجِبت، وعن اسم جوليانا على الفور سألت، كما أنّها أرادت أن تعرِف من أيّ أرضٍ الطفلة قد قدِمَت، وكالمُعتاد طفلتنا بلذاذةِ صَوتِها وعذوبة لحنها بِنفسِها عرّفت:

عُمتِ مساءً يَا آنِسَتي *** أنَتِ أرْضَي ومَسْقطُ رأْسَي

أنا جُولَيانا يا سِرُّ أمَانِي *** أنْتِ مَلاذَي واطمِئنَاني

أتيتُ إليكِ بِصُحْبةِ قَمَري *** والعِلمُ هَو سَبَبُ مَجَيئي

مِن عِلمُكِ كَأسَاً اسْقِيني *** بِالعلْمِ فَضْلاً ارْوِيني

الآنِسة أرض بحماسةٍ صفّقت، وعلامات الدّهشة والإعجاب على وجهها ظهرت ، أَسَيرةٌ لكلمات جوليانا قد صارت، وبِعينين لامِعتينِ وبالحب ممتلئتين إلى الفتاة نظرت، وماذا تقول في هذهِ اللحظة أبداً ما عرفت ، فكلمات الثناء لها قد خَانت، ولكِن يبدو أنّها بِغناءِ الطّفلةِ قد سُعِدت، وكيف لا تَسعد والفتاة الحسناء بِها سَكَنت.

وهكذا الآنِسة أرض كَأس العلم لجولينا وهبت:

إليكِ كَأس العلم يا طِفلتي، وبِكُلِّ الهناء منهُ ارْتشِفي!

الآنِسةُ أرض يُسمّوني، ومِن بين الصّحبِ الثالِثةُ هي مرتبتي وبالكوكب الأخضر يُلقّبوني، جَميع الكائنات تعيش على سطحي وهذا هو سَعدي، يُغطّي المَاء ٧٠٪ من أرضي، يسود غَاز الأكسجين سَطحي، وهو سِرُّ حياة أبناء أرضي، كما أنّه يَمنع النّيازِك المروّعة من إلحَاق الضّرر بِسطحي، أدور أربع وعشرين ساعة حول نفسي، وبِالتالي يحدث تعاقب غاية في العجب لليلي ونهاري، دَعيني أُحدّثكِ الآن عن شمسي، فأنا أدور حولها مرةً كلّ ثلاث مئة وخمسةٍ وستين يوماً ورُبع اليَوم بكامل طاقتي، وبِالتالي تحدث أربعة فصول بِفضلِ دوراني، والقمر الذي تعتلينه هذه اللحظة هو قمري، يدورُ بِكُلِّ هِمّة ثمانية وعشرون يوماً حولي، وهكذا يبتدئ شهر قمَريٌّ وما يسبقه حتماً ينتهي!

وبكلماتٍ مغمورة بالكثيرِ من اللطف حديثها اختتمت: أرجو أن تَكونَ طفلتي الحلوة قد اسْتفَادت، وممّا قلت علماً وفيراً استقت!

***

وبِالفعل جوليانا مِن كَأسِ العلم الذي قدّمته الآنسة ارتوت، وبوصف الآنسة حقّاً استمتعت، فشكرت للآنسة فضلها وعليها أثنت، ولطف الآنسة ورقّة قلبها مدحت، ولكنّها لها ما ودّعت، فمن عودتها لها لاحقاً أدركت، فمشاعر الانتماء التي سلفاً بها شعرت، الآن السِّر خلفها قد علِمت، فهي بها قد ولِدت بَل عاشت وترعرعت ومنها قبل لَحظَات في رحلتها للفضاءِ قد انَطلقَت!

***

وروح جوليانا من فرط السّعادة توهّجت، وبالعلم المنير قد تنوّرت ولكِنّها حتّى اللحظة ما اكتفت، لَطَالما في المَزيد مِن المعرفة طمِعت، وفِي طَريقها مع قَمرها للكوكب التّالي من تَسبيحِ اللهِ أكثرت، وللفضاءِ الرّحب بِخشوعٍ تأمّلت، وسُبحان من صَوّركَ يا كون وأبدعك جُوليَانا كرّرت!

وإلى السيد مريخ مع صَديقها المضيء انطلقت، وما إن على مقربةٍ منه وقفت، حتّى إيّاه بِهدوءٍ تفحّصت، وحزنه العميق على الفور لاحظت، وجبينها باستياءٍ قطّبت، و في أن تعرِف سر بؤسه رغِبت،

ولكِنّها على ذلك ما قدِرت، فمن ردّة فعل السيّد خشيت وإلى قمرها الوضّاء بصرها نقلت، فربّما حلًّا مُنَاسِباً عنده وجَدت، فعرض عليها أن تُغنّي للسيّدِ وبحبورٍ قبِلت، وأن تُعيد السعادة إلى السيد الحزينِ تَمنّت!

جوليانا هكذا كانت، فما إن أَحدهم بائساً حزيناً بصُرت، ما برحت أن لحزنهِ حزنت، حتّى لو له إطلاقاً ما عرِفت، وبصوتها السّاحر الدافئ غنّت:

يَا سَيَّد اخْرُج مِن حُزنِك *** وبِرِفْقٍ هَيّا امْسَح دَمْعَك

فَالْحُزْنُ لا يَليَق بِوجْهِك *** والبَؤس لَيَس بِمَحَلّك

انْظُر مَا أجْمَلَ طَلّتُكَ *** فَالكُلُّ يَهوى فَرَحَتُكَ

وَالآنَ دَعْنَي أُحَدِّثُكَ *** بِجَمَالِ لونِكَ أُخْبِرُكَ

صَافِحْنَي هَيّا مُدّ يَدَك *** وامْلَأ دُنَيَاي بِبَسْمَتِكَ

وما إن جوليانا من الغناء انتهت، حتّى على السَيّد مريخ نظرةً خاطفةً ألقت، بحثت عن ملامح الحزن التي كانت على وجهه قبل لحظات خيّمت، لكنّها سعِدت عندما عليها ما عثرت، فمن جمال ما به نطقت، أحزانه وهمومه تلاشت واختفت، وشفتيها عن ابتسامة رقيقة انفرجت، تبسّم لها وببسمته الجميلة فرِحت، وعن نفسها الفتاة تحدّثت، وعن السبب الكَامن وراء مجيئها لهُ أخبرت، وسلاح العلم منهُ طلبت!

***

بدا واضحاً أنّ السّيد مِريخ قد أحبّهَا، وعن مدى سعادته بقدومها عبّر لها، وبِكُلّ الودِّ رحّبَ بها، فقد أُعجِب بروعةِ كلماتها وعذوبة لَحنها، كما أنّه وقع أسيراً لرقّةِ صوتها، وبعبارات التّشجيع شجّعها، وبِمنتهى الحُب لبّى طلبها، وبالمعرفةٍ حَالاً زوّدها:

أميرة الليل، يا ذات الخُلق النّبيل ، وصاحبة الوجه الجميل،

سَأُهديكِ كمّاً من العلم وبه تَسلّحي، وبهِ أيضاً أمّتكِ نحو المجد ارْفعي:

السَّيد مريخ يُقال لي، ومن بين الأصدِقاء في الرّقم أربعة أجِدُ مرتبتي، والكوكب الأَحمر هو لقبي، معدن الحديد الصَّدِئ ينتشر بغزارة على سطحي، وهو سَبب الحُمرة التي تَسُود أرجائي، لوني مُميّزٌ هَكذا وبهِ أنا أحتَفي، الهضاب والجبال والبراكين تتوغّل بِكثرة فِي أعماقي، لذا يدرُس عُلماء أرضِكُم إِمكانية عيش البشر وَالكائنات الحيّة في جوفي، إِلاّ أنّهم لم يتوصّلوا بعد إلى نتائج مُبهِجة حول أَمري، وهنا يَكمُن سرُّ غمّي،

فأنا أتوق لرؤية الحياة في أعماقي، توجد آثار لفيضانات عتيقة بداخلي، أربعُ وعشرون ساعة وسِتُّ دقَائق هو عدد ساعات يومي!

أَطول بِقليل من يوم الآنسة أرض في يومي، لَدّي قمرٌ أخّاذ يدور ببهاءٍ حولي، أمّا سنتي فهي ضِعف سنة الآنسة أَرض ممّا يعني أن الوضع مختلف جدّاً على متني، فمِن ستُ مائة وسبعة وثمانون يَوماً يتألّفُ عامي!

وبابتسامةٍ عريضة اختتمَ حديثه: يا جميلتي، كَم أتمنى أَن أكون قد أنرتكِ بعلمي، وأمددتُكِ بِسلاحي، حَيث بهِ لن تُهزمي، لن تُهزمي يَا طِفلتي بِقُدرة إلهي!

***

وبقدرٍ كبير من العلم طفلتنا تسلّحت، وبالمسرّة روحها اتّقدت، وعظيم الشُّكرِ والعرفان للسيّد الودود قدّمت، وبالكلامِ الطيّب النبيل قلب السَيّد طمأنت، وألاّ يعود لحزنهِ مجدّداً منه الوعد أخذت!

ولوجهتها التالية مع الرفيق المنير على عجلٍ عرجت، فقد مَضَى وقتٌ طَويل مُنذ أَن من المنزلِ خرجت، وبأنّه يجب عليها أن ترجِعَ باكِراً تذكّرت، وأن تنهي رحلتها بسرعة أزمعت، وبذلك إِلى الكوكب اللاحق سريعاً اتّجهت!

***

وحال وصولها حيث يقيم السيّد مشتري بسعادةٍ قفزت، وحجمه الكبير أوّل ما قد لمِحت، وما إن النّظر فيه ركّزت، حتّى بصُرت هالةً بديعة الصُّنع بكوكبه أحاطت، هي هالة صعبة الرَّؤية ولكن فَتاتنا بدقّة ملاحظتها قد تميّزت، وإلاّ لكانت لها قطعاً ما انتبهت، ومن الجمال الهائل للهالةِ الرّب سبّحت، وبصوتٍ طفولي بريء التّحية على السّيد ألقت، ولكنّها لصوته ما سمِعت، حدّقت به وللحظةٍ انتظرت.

***

أخبرها قمرها بِأَن تعاود إِلقاء التَّحية، فامتثلت وللتحيّة كرّرت، إِلاّ أنّها جواباً مِنه ما لقيت، وعلامات الاستغراب على وجهها طلُعت، وأنّهُ ربّما كان نائم خمّنت، وفي تخمينها بالفعلِ أصابت، فسرعان ما علا صوتُ شخيرٍ مُزعج منه ذُهِلت، وماذا عساها تفعل تساءلت، فهي على إيقاظ النائم من منامه ما قَطُّ أقدمت، فجوليانا بِحُسن خُلُقها وجمال طبعها قد عُرِفت، وبغتةً تسلّل الحُزن إِلَى قلبها الصّغير فما لبِثت أَن عَبِسَت ولكنّها من قمرِها البديع بِالعونِ حظيت!

***

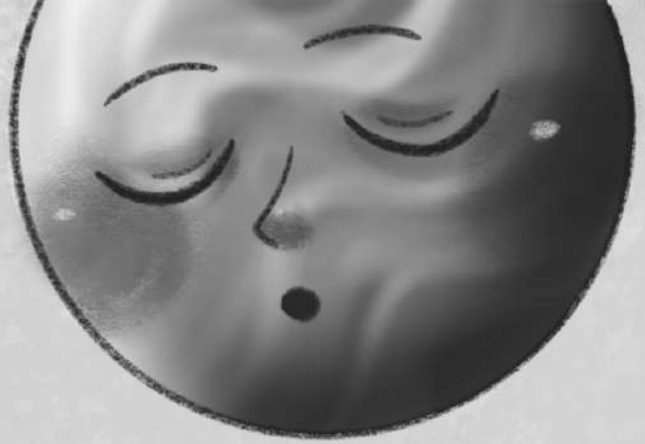

بنبرةٍ حانيةٍ قَال لها: حسنائي! لِمَ العبوس هيّا ابتسمي، فصاحبي مشتري بِالمعرفة ذات يومٍ قد زوّدني، وعلى وصف كوكبه قد أطلعني، وسوف أزوّدكِ بالعلم الذي أخبئه في جعبتي، اهدأي وابتسامتكِ الآسرة أريني! والآن إليكِ ما بحوزتي ياوردتي!

هذا الكوكب الماثل أمامكِ بالسيّد مُشتري يدعونه، ومن بين أَصدقائه الكواكب الخامسة هي مرتبته، كبير جدّاً في حجمه، وهو سميكٌ للغاية في الغلاف الجوي المحيط بِه، لديه هالة تُجمّله، ولكن من الصَّعب جدّاً إبصارها من قِبل من هم حوله، عشرٌ هي ساعات يومه، سيّدنا مُشتري قصيرٌ للغاية في يومه، السنة الواحدة في دَاخِله تُساوي إِحدى عشر سنةً أرضية، لديه أربعةٌ وسبعون قمراً يدورون بودٍّ حوله!

جوليانا بِما قدّمهُ لها القمر سُرّت، ومنهُ على معلوماتٍ ثمينةٍ نالت، وببهجةٍ فائقة لصديقها عانقت، وعن امتنانها العميق له أعربت، فلولا وجوده معها بعد الله جلّ جلاله لما كانت للمعرفة قد كسِبت، وإلى كوكبٍ جديد على الفور انتقلت!

***

وفي سبيلهما لصديقٍ آخر الفتاةُ على ظهر القمر استلقت، وقدمٌ على أخرى وضعت، وبصوتها السّاحر لهُ غنّت، سئمت من الغناء وعنه حتماً عزِفت، " يا إلهي هَل استيقظ والديّ؟ هَل افتقداني؟ هَل بحثا في الأرجاء عنّي؟ " وهكذا الأسئلة بجوليانا قد عَصِفَت، إلاّ أنّها على إجاباتٍ لها ما عثرت!

وعن موعد شروق الشّمس على الآنسة أَرض صديقها سألت، غير أنّها على إجابةٍ دقيقةٍ عنده ما وجدت!

***

وشوشَ القمر لها مُخبِراً إيّاها بأنّها إلى السّيد زُحل وصلت، و سريعاً سريعاً فتاتُنا من جلستها عدّلت، وهذه المرّة في أن تنزِل إلى الكوكب أمرها حزمت، حاول القمر منعها ولكنّها لكلامهِ تجاهلت، وعلى سطح السَّيد زُحل بِخفّةٍ قفزت، وسُرعان ما دُهِشت من روعة ما قد شاهدت، وبحلقتهِ الفاتنة أُغرِمت، ولشدّة انبهارها بِما رأت " ما أَعظمكَ يا إلهي إذ أَحسنت صُنعهُ" رَدَّدت، ويُمنةً ويُسرى رأسها حَرّكت، نَقَلَت نظرها في أنحاءِ الكوكب وللهواءِ بِعُمقٍ تنفّست!

لم تستطع كبح بهجتها وبنعومةٍ آسرة رقصت، فهي من الوقوف على سطح كوكبٍ غير سطح الآنسة أرض تمكّنت، وعلى حينِ غفلة نسمة هواء شديدة البرودة بطفلتنا مَرّت، وسرعان ما أطرافها منها ارتعدت، وعن الرقص في الحالِ توقّفت!

***

وما هي سوى ثوانٍ معدودات حتّى بالهلع الشديد أحسّت، ومن الصّمت الذي يخيّم على الكوكب جفلت، ولغير صوت الرياح قطعاً ما سمِعت، وبصرها صوب قمرها لتتأكّد من وجوده نقلت، وما إن رأته حتى لربّها حمدت، فمن أن تبقى وحيدة في هذا المكان خافت، صحيحٌ أنّها في البداية بِهِ أُعجِبت، ولكنّها في مغادرته حالاً رغِبت!

***

أدركت طفلتنا أنّها تهوّرت، عندما على النَّزول لكوكب زحل عزمت، فقد أحسّت ببردٍ فظيع منهُ أطرافها تجمّدت، وبيدها الصّغيرة لقمرها لوّحت، وبأن يَقترِب حيث تَقِف أرادت، وفي أن ترجِع لسطحهِ الآمِن رغِبت، تقدّم صاحبها ناحيتها وإليه بأقصى سُرعة ركضت، ويداها الصَّغيرتان ببراءةٍ لهُ مدّت!

***

وما إن بيدهِ أمسكت، حتّى صدر صوت أجش غليظ منهُ فزِعت، ومن علوّهِ المسكينة ارتعبت، ويد صاحبها لا إراديا أفلتت، اختفى الصَّوت المُهيب ومن أعماقها تنهّدت، وأن تصعد لسطح القمر مُجدّداً حاولت، نظرت إليهِ ومن نظراتهِ تفاجأت، فالخوف في عينيهِ قَد لاحظت، وبصوتٍ خفيضٍ لهُ قالت: "لا تقلق يا قمري فالله معنا "هكذا من روعهِ هدّأت، وأمامهُ بِالقوّة تظاهرت، ولكن خوفاً وقلقاً عميقاً في الأعماقِ قد خبّأت، ورغم ذلك الظّن بالله أحسنت، ويديها مجدّداً إليه مَدَّت!

***

وبأملٍ ويقين لهُ ابتسمت، وبيديه هذه المرّة بقوّةٍ تشبّثت، وما إن في ذلك نجحت، وإلى القمر قليلاً ارتفعت، حتّى هبّت عاصفة غاية في البرودة منها الطفلة ارتعشت، ومن هولها بذعرٍ صاحت، وأن تُمسِك بيد صاحبها بكُل ما أوتيت من قوّة حاولت، ودموع الخوف على وجنتيها انهمرت!

ولكن العاصفة القاسية سرعان مالها حمِلت، وبجسدها الصّغير في أرضٍ خاويةٍ ألقت، وعلى الرّمال بقوّةٍ ارتطمت، وعن العالم فتاتُنا غابت!

***

وبصوتٍ قلِقٍ مُرتجِفٍ القمرُ دعاها، جال بِنظرهِ في الأرجاءِ بَاحِثاً عنها، ولكنّه ما وجدها، ونفسهُ بِعنفٍ وبّخها: يا لك من قمرٍ مُغفّل بل معتوه ها قد أضعتها، ماذا، ماذا فعلت بها؟ بالنّزول إلى الكوكب لِمَ سمحت لها؟ ما هذه الخطيئة الشنيعة التي ارتكبتها؟ يا أيُّها المجنون لِمَ أَفلت يدها؟

وبينما كان يوبّخ نفسه مُتجوّلاً في أرجاء الكوكب وقعَ بصرهُ مصادفة على شريطة شعرها، عالقاً على غصن شجرة قد ماتت منذ أمدٍ أوراقها، وجدها وبلهفةِ قبّلها، ومِن على الغُصنِ حتماً أخذها، وفوق سطحهِ وضعها، فلقد خمّن مكان وجود صديقته مِن خلالها، فانطلق ليبحث عنها!

***

أصابَ قمرُنا في تخمينه وصدقاً وجدها، وبشعورٍ بالذّنب اقترب منها، وبقلقٍ باسمها دعاها، ولكنّه لم يحظ بجوابها، وبنبرة متألمة حدّثها: أأنتِ بخير يا حسنائي، ها قد اقتربت منكِ هيّا أفيقي، وعلى سطحي فلتصعدي، يا حسنائي ألا تريدين لرحلتكِ أن تُكملي؟ إذاً فلتستفيقي يا حلوتي، لقد هدأ الطّقس الآن فلتنظُري، وقد أحضرتُ شريطة شعرُكِ فبها فلتُمسكي!

ولكن جوليانا لنداءاته المُتكرّرة أبداً ما استجابت، وكأنّها إلى عالمٍ آخر قد رحلت!

***

صرخ القمر صرخةً حادّة حزينة أَفزعت الدُّنيا ومن فيها، ظلّ يُردّد اسمها بصوتٍ صاخب ممتلئ بالحزن والأسى عليها، حتّى تردّد صداه في أنحاء الكوكب حسرةً عليها، وبقلبٍ يتفطّر ألماً عليها بكاها ، وبوجهٍ بائسٍ راح يتأملها، ودموعه تساقطت بِحرقةٍ على خدّيها!

وفتاتنا لمّا بدفء دمعه أحسّت، عيناها بتمهُّلٍ فتحت، وجسدها الصَّغير رويداً رويداً حَرَّكت، وفي قمرها الباكي بتعجّبٍ تطلّعت، ومن غزارة دمعهِ دُهِشت، وبصوتٍ مُرهق عن سبب بُكائهِ سألت!

***

قفزَ القمر وارتجف حالما سمِع صوتها ومنه الفتاة استغربت، فَلم يُصدّق أَنّهَا للدنيا قد رجِعت، أخبرها بأنّه ظنّ أنّها للحياة قد فارقت،

ومن ظنّه الساذج سريعاً ضَحِكت، وبأن تنهض على قدميها حاولت، ولكنّها للأسف ما تمكّنت، فقدمها الصَّغيرة إِثر سقوطها قَد جُرِحت، وإلى رفيقها بيأسٍ نظرت!

***

انتبه قمرها لنظراتها المُتألمة المُستنجدة فأَمسك في الحالِ بِقدمِها وعمّا ينوي فعله تساءلت، وبشريطة شعرها ضمّد برفقٍ جرحها ومن لطفه خَجِلَت، عاودت النَّهوض تارةً أخرى وبيد القمر جيّداً أَمسكت، وبلُطفٍ من اللهِ اللطيف الفتاة على قدميها وقفت، وبفرحةٍ هائلة للرّب شكرت، ومن حمدهِ أكثرت!

***

وبمساعدة رفيقها من الارتقاء على ظهره تمكّنت، وعن متابعة رحلة علمها ما استسلمت، ولكنّها من اختفاء السَّيد زُحل قد قلِقت، فلِمَ لم يظهر رغم الفوضى التي قبل لحظات حدثت ، وإن كان راقِداً فكيف لم توقظه صرخات القمر التي الفضاء بأكمله هَزّت، وفي أن تغنّي لَه فكّرت، فلرُبّما بالإتيانِ بِه نجحت!

زَائِـــرَةٌ أَرَضُـكَ قَـدْ وَطَـأَت *** وَفِي دَارِكَ عَنَـكَ قَـــدْ بَحَثَـــتْ

لَكِنَّهَـا أَبَـــدَاً مَـا وَجَـدتَ *** وَكَـــأَنّ الأَرَضَ لَـكَ ابْتَلَـعَـتْ

زَائِـــرَةٌ أَعَـمَاقُـكَ جَابَـــتْ *** وَعَلَى السّـــطِحِ جَالَـــتْ صَالَـــتْ

وَرَيَـــاحُ الْـبَرْدِ بِهَـا عصِفَـتْ *** وَبِـكُـلِّ الْعُـنْفِ بِـهَا أَلَـقَـتْ

وَ أَسَـفَاه قَدَمَاهَـا جُـرِحَـتْ *** وَدِمَـــاءٌ مِـنْهَـا قَـدْ نَـزَفَـتْ

والصَّحَـبُ اعْتقَدَوَهَـا مَاتَـتْ *** لَـكِّـنَّـــهَـا للـوَعِـي افْـتَقَدَتْ

وَبِـــدَمَعَةِ قَمَـرٍ قَدْ فَـاضَتْ *** بِـالـحُّـبِ الـدَّافِئِ قَدْ شَـعَرَتْ

وَبِعَـوَنِ الـرَّبِ قَـدْ حَظَيَـتْ *** وَلِـوَعَـــيهَا حَـــتَمَاً قَدْ عَـادَتْ

وَبِـإِصَرَارٍ نَهَضَـتْ نَهَضَـتْ *** وَلِسَـــطَحِ الْـــقَمَرِ قَدْ صَعِـدَتْ

وَلِـرَؤَيتَـــكَ هَـا قَدْ جَـاءَتْ *** وَلأَخْـــذِ عِلْمِـكَ قَـــدْ تَاقَـتْ

وَبِـــكُلِ الْحُـبِّ لَكَ اعْتَـذَرَتْ *** وَلإِزْعَاجِكَ هَـي قَـــدْ أَسِـــفَتْ

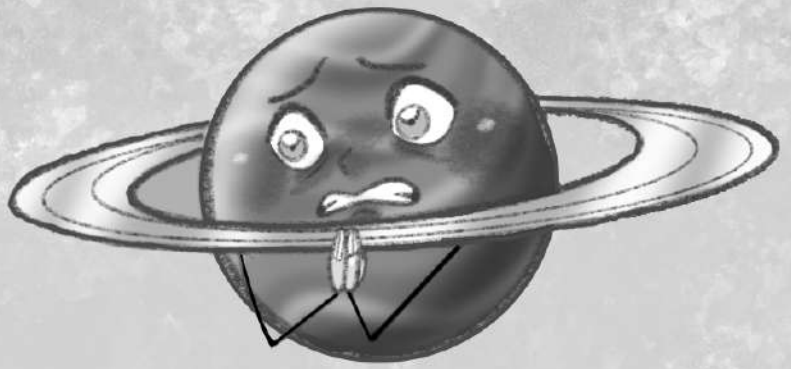

كالمُعتاد الفتاة بصوتها الجميع أطربت، والسيّد من صمتهِ أخرجت ومنه الثّنَاء العظيم لقيت، وهذهِ الكلمات منهُ سمِعت:

حمداً وشُكراً للرّب عَلَى سلامتُكِ يا طفلتي، فقد عاينتُ ما جرى قبل لحظات معكِ يا جميلتي، إذ كنتُ صاحب الصّوت الرهيب الذي منهُ فزعتِ يا مُذهلتي، أَردتُ إلقاء التَّحية عليكُم إلاّ أنّ بحّةً غريبة داهمتني، فجعلت من صوتي صوت وحشٍ مُخيف منه ارتعبتِ وهنا يكمن حرجي، فلولاي يد قمركِ أنتِ لم تفلتي، أي أنّني لو لم أُصْدِر ذلك الصّوت المُريع لكنتِ على ظهره صعدتِ آهٍ وأسفي، فلولا صوتي القبيح الذي أرعبكِ مع العاصفة لم تنجرفي، أقدّم إليكِ بالغ أسفي، وأرجوكِ الآن أن تبتسمي!

***

كما أودُّ إخبارِكِ بأنّ لكِ صديقاً في غاية الوفاء وعليه فلتُحافظي، شديدةٌ هي العواصِف في داخلي، ما كان عليكِ أن تتهوّري يا حلوتي، ففي بادئ الأمر ظننت أنّك للدنيا أبداً لن تعودي، ولكن في نهاية المَطاف اكتشفت أنّك للحياة لم تُفارقي، قصدت العون ولكن صَديقكِ إليكِ سبقني!

فتاتي مِمّا حلّ بكِ يجِب أَن تتعلّمي، لذا حذارِ من الكوكبين الباردين المُتبقّيين أن تقتربي!

فأورانوس الكوكب الذي يليني، مُتغطرس جدّاً وبارد وعلى العلمِ مِنه بسهولة لن تحصُلي، فلن يُعطيكِ من زادهِ عِلماً حتّى تخوضي في جوفهِ العديد من التّحديات القاسية التي حياتُكِ قد تُنهي، وإذا في الذّهاب لنبتون الكوكب الأَخير قد رَغبتِ فأنا بهذا لا أَنصحُكِ يا صغيرتي، فالسيّد كسول للغاية يغُط في سُباتٍ عميقٍ ومن إيقاظهِ بتاتاً لن تتمكّني، وإن حاولتِ إيقاظه فإنكِ في سبيل ذلك لوقتكِ الثمين من الضياع لم تحفظي، وعن العودة لمنزلكِ باكراً لن تقدري، ومنّي العلم الأفضل لكِ أَن تأخذي!

***

صديقتنا لمشاعرهِ النبيلة أحبّت، وبنصيحتهِ الثمينة قبلت، فمّما جرى لها تعلّمت، وَأَن تعود سالمة غانمة لوالديها أرادت، وبأن تحصل على العلم من السَّيد فضّلت، وبعينين تشُعّانِ حُبّاً للعلم عن استعدادها لتلقّي المعرفة أعربت!

***

وبِصوتٍ مبحوحٍ قالَ السَّيد زُحل لها:

يَا صَاحِبَةُ اللْحَنِ البَّهِي *** وَالصَّوَتِ الْعَذْبِ الشَّجِي

سَأُحَدِّثُكِ الآنَ عَنْ كَوَكَبِي *** وَلِحَدِيثِي جَيَّدَاً فَلْتُصْغِي!

بالسيّد زُحل الجميع يدعوني، وفي المرتبة السّادسة يجدوني، أمتلِك حلقة أنيقة تُحيط بي، وهي الأَجمل من بين حلقات أَصدقائي، فحلقتي من قِطَع الجليد والصخور تتكوّن وهُنا تكمُن ميزتي، ولِذا يتزايد إِعجابي بنفسي!

ولإلهي الذي صَوّرني وأبدعني جُلّ شُكري، السَّنة الواحدة في داخلي تسعٌ وعشرون سنةً أَرضيّة تساوي، هناك ثلاثةٌ وخمسون قمراً بديعاً يدور في سمائي، ولأقماري منّي كُلَّ حُبّي!

***

ابتسم السَّيد لجوليانا وبحنيّةٍ خاطبها:

ها قد أنهيت الوصف الخاص بِي يا طفلتي

وإليكِ الآن يا فتاتي ما يختصُّ بِأَورانوس رفيقي:

السَّيد أورانوس يُسمّونه، ومن بين رفاقِنا الكواكب الرّقم سبعة هو ترتيبه، لديه ثلاث عشرة حلقة تطوفُ حوله، ومع ذلك لن يستطيع مجاراة جمالي بِحلقاته، ومن سبع عشرة ساعة يتألف يومه، يمتلك صديقي سبعةٌ وعشرون قمراً مُضيئاً يزيّن سمائه، السَّنة لدى صاحبي تساوي أربع وثمانين سنةً أرضية ممّا يجعله مُختلِفاً عن غيره، كما أنّ هُناكَ شيءٌ غريب يُميّزه، أَلا وهو أنّهُ يدور بطريقة بديعة على جانبه!

***

أخرج السَّيد زُحل مِنديله، وبرفقٍ نظّف أنفه، بدا واضحاً أن البرد بالرّشحِ أصابه! أطرق سيّدنا للحظات محدّقاً في كفّهِ، ثمّ رفع بصره حيث تقعُد جوليانا وبرقّةٍ قال لها:

جوليانا يا فتاتي الجميلة الرَّقيقة، ها قد بلغتِ نهاية المغامرة، وبسعيكِ للحصول على العلم كنتِ بطلة، إليك الآن تتمّة الرحلة!

دعيني أحدّثكِ عن آخر الكواكب السيّد نبتون

صديقي:

السّيد نبتون هو اسمه، الثامن في مرتبته، يُغطّي كُلٌّ من الجليد وغاز الميثان سطحه، لهذا تجدين الأزرق لونه، وبهذا اللون يتميّز صديقي عن غيره!

صاحبي مُظلِمٌ وبارد كما أنّهُ عَاصِف لذلك هو يَغُط دوماً في سُباته، بُعده عن شمسنا الدافئة هو السر خلف برودته، وهو أسرع من الآنسة أَرض في دورانه حول نفسه، إِذ يستغرق ستّ عشرة ساعة فقط في دورانه، وفي المُقابل هو أبطأ أصحابُنا الكواكب حول الشّمس في دورانه!

***

توقّف السَّيد زحل وتزايد عُطاسه، حيث كان يعطِس وهو يُثبّت منديله الأزرق عَلَى أنفهِ، وبينما كان غارقاً في رشحه، أشار لجوليانا بيده، إشارة مفادها أنّهُ قد أنهى تقديم المعرفة التي في جعبته!

***

جوليانا لِمَا أَصاب السَّيد زُحل حَزِنت، وإليه بِأَسَفٍ نظرت، والشّفاء لهُ من اللهِ طلبت، ولعطائهِ السَّخي شكرت، ووعدٌ بِأن تأتي لزيارتهِ قريباً قطعت، رمقتهُ بنظرةِ ودٍّ وابتسمت، وفي ودائع الله السيّد أودعت، هكذا طفلتنا لهُ ودّعت، ومع قمرِها في الحال انصرفت!

***

وفي أن تُلقي نظرة على الكوكبين الباردين أرادت، وأن تُطّل عليهما من بعيدٍ قمرها طلبت، وبموافقته على طلبها سُعِدَت، وبالسّيدين أَورانوس ونبتون مَرَّت، وجوليانا بنصيحة السيّد زحل قد عمِلت، ومنهما أبداً ما اقتربت، وإنّما عليهما نظرةً خاطفةً ألقت، وجدتهما كما وصفهما السَّيد زُحل فابتسمت، هي بِعلم السَّيد وَثِقَت، إلاّ أنّها في رؤية شكليهما رغِبت، ولله العظيم مصوّر الكون سبّحت!

***

ها هي طفلتنا الجميلة رحلتها قَد أَنهت، وبالكثير من المعلومات ألمّت، وبخجلٍ قمرها طوّقت، وبالبكاء حتماً أجهشت، وجزيل الشكر والعرفان لهُ قدّمت، وبِقُبلةٍ دافئةٍ منهُ حظيت، وأن تلقاه في القريب العاجل بشدّةٍ تمنّت!

وريثما تَصِل لمنزلها على سطحِ قمرِها استلقت، تخيّلت سريرها الدّافئ وبعذوبةٍ ابتسمت، وبِنُعاسٍ الطفلة شعرت، قاومت وقاومت ولكنّها أبداً ما احتملت، وفي نومٍ عَمِيقٍ غَطّت!

***

وطفلتنا بيدٍ حنونة تَمسح على شعرها أحسّت، وببُطءٍ عينيها فتحت، وبضبابية إلى رفيقها القمر وهو يضع الغطاء عليها نظرت، و بيديها الصّغيرتين سريرها تحسّست، فَأَدركت أنّها لمنزلها قد رجِعت، وبوجهٍ طفولي بريءٍ ناعسٍ له ابتسمت، وبصرها سريعاً أَغلقت، وفي بحر نومها طفلتنا مجدّداً غرِقت!

***

وهكذا الجدّة الحكاية أتمّت:

أطفالي الرائعين أرجو أن تكونوا من الحكاية قد استفدتم، ولثمار العلم بصحبة جوليانا قطفتم، وبالمعرفة جيّداً تسلّحتم، وبخيالكم مع صديقتنا وقمرها إلى الفضاءِ حلّقتم، وللفوائد في حكايتنا تذوّقتم، وعلى تطبيق العلم النَّافع في حياتكم عزمتم!

***

تثاءبت جدّتنا ما إن حديثها أنهت، وفمها سريعاً بيدها سدّت، وببطءٍ كتاب الحكايات أغلقت، صدر صوت شخير منهُ دُهِشت، وبصرها حيث مصدر الصَّوت نقلت، وبنوم أطفالها فُوجئت، وابتسامة حنونة على شفتيها بانت، ومن مقعدها بتكاسلٍ نهضت، وإلى حُجرة النّوم عرجت، وفي مدفأتها النَّار أضرمت، وبوساداتٍ وأغطية من الرَّيش الدَّافئ فراش كُلٌّ واحدٍ منهم زوّدت، وإلى حيث يرقُد صغارها عادت، وعلى الرّغم من كِبَر سنِّها إلاَّ أَنّها لهم حمِلت، وكُلّ واحدٍ منهم في فراشه أدخلت، وبقُبلة النّوم عليهم ما بخِلت، ومن اللهِ الحفيظ الحِفظ لهُم تمنّت، غادرت الحُجرة والباب خلفها أطبقت!